بيتر هاندكه

عن التعب



نوبل
2019

ترجمة: د. رضوى إمام



مكتبة | ٩٧٠
سُر مَن قرأ

عن التعب

بيتر هاندكه

د. رضوى إمام/ أستاذ مساعد بقسم اللغة الألمانية، كلية الألسن، جامعة عين شمس، تخصص الدراسات الأدبية والأدب المقارن.

عن التعب
طبعة 2020
رقم الإيـــــداع: 2019/27078
الترقيم الدولي: 978-977-821-127-6



الناشر
محمد البعلي

إخراج فني
علاء النويهي

This is full translation of the book "Versuch über die Müdigkeit" by Peter Handke © Suhrkamp Verlag Frankfurt am Main 1989.



elbaaly@gmail.com

دار صفصافة للنشر والتوزيع والدراسات
5 ش المسجد الأقصى - من ش المنشية - الجيزة - ج م ع.

بيتر هاندكه

عن التعب

مكتبة | ٩٧٠
سُر مَن قرأ

ترجمة

د. رضوى إمام



بطاقة فهرسة

إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية،
إدارة الشئون الفنية

هاندكه، بيتر، ١٩٤٢-

عن التعب: رواية/ بيتر هاندكه، ترجمة: رضوى إمام

الجيزة، دار صفصافة للنشر والتوزيع والدراسات، ٢٠١٩

٥٦ ص، ٢٠ سم

تدمك ٦-١٢٧-٨٢١-٩٧٧-٩٧٨

١- التعب

٢- التوتر

أ- إمام، رضوى (مترجم)

ب- العنوان

١٥٢,١٨٨٦

رقم الإيداع: ٢٧٠٧٨/ ٢٠١٩

عن التعب

في الماضي، دائمًا ما كنت أخشى التعب.

متى كان ذلك الماضي؟

في وقت الطفولة، وفترة الدراسة، وسنوات الحب الأول.

ذات يوم، أثناء قدَّاس منتصف الليل، جلس طفل صغير مع عائلته داخل الكنيسة المضيئة، المتكدسة بالزوار، حيث كانت تدوِّي أغاني عيد الميلاد، وتفوح رائحة الصمغ والأقمشة الصوفية. شعر الطفل بشيء من التعب، يتخلله قدر من المعاناة.

أي معاناة؟

كان ذلك التعب أشبه بالمرض الخبيث، الذي تسلل إلى أعماقي، حتى شوَّه كل ما حولي. جعلني أرى زوار الكنيسة وكأنهم

مجموعة من الدُّمى المصنوعة من الجوخ واللباد، تحاصرني من كل اتجاه. أما المذبح ذو الزينة اللامعة، على بعد مسافة شاحبة، فقد بدا وكأنه حجرة تعذيب، تتخللها طقوس وشعائر مُربِكة. شعر ذلك الطفل التَعِب وكأنه صار تمثالًا برأس فيل؛ ثقيلًا، جاف العينين وخشن الملمس. خطفه الشعور بالتعب من قلب الأجواء الشتوية التي يعشقها؛ هواء الجليد وظلمة الليل، تحت أضواء النجوم، بعيدًا، عند حدود القرية، حيث الخلاء، بعد الانتهاء من رحلات التزحلق على الجليد، وعودة الأطفال إلى بيوتهم واحدًا تلو الآخر. كان يروقني أن أكون وحدي، فتتغمدني الفرحة؛ شعور كامل ومكتمل بالوجود، في طيات ذلك السكون، مع طنين الهواء، وزرقة الجليد الذي كسا الطرقات. كنت أشعر بـ"وخز البرد"، هكذا أصف شعوري بتلك البرودة الممتعة. أما في الكنيسة، فقد كان شعوري بالبرودة مختلفًا، إذ امتزج بذلك التعب، الذي أمسك بي في قبضة يده. كنت طفلًا صغيرًا، استجدَى العودة إلى منزله أثناء الصلاة، وأراد أن يترك المكان. لم يحتَج سوى لكلمة "أخرِجوني"، فنبس بها، وإذا به يُفسِد على عائلته فرصة لقائهم بالجيران، تلك الفرصة التي تظل تندثر مع مرور الوقت، بحكم تراجع الحرص على العادات والتقاليد.

تسللت مشاعر الذنب إلى إحساسي بالتعب، حتى حوَّلته إلى ألم شديد. تألمت لأنني خذلت عائلتي مرة أخرى، تألمت، وكأن رأسي مربوط بشريط فولاذي، أو كأن الدم قد انسحب من شرايين قلبي. وحتى الآن (أي بعد مرور عدة عقود)، ما زلت أشعر بالذنب عندما يراودني الإحساس بالتعب. لكن الغريب في هذه القصة، هو أن عائلتي انهالت عليّ بعبارات التوبيخ، دون أن يلتفت أي منهم إلى نوبة التعب التي أصابتني.

ماذا عن الإحساس بالتعب في فترة الدراسة، هل كان شبيهًا بذلك؟

كلّا، فقد تلاشى حينها شعوري بالذنب. فالتعب الذي كان يجتاحني في قاعات المحاضرات، جعلني غاضبًا ومتمردًا. لم يكن ذلك بسبب التهوية السيئة، أو التكدس مع مئات الطلاب الآخرين في مكان ضيق، بقدر ما كان بسبب عدم اكتراث الأساتذة بما يُفترض أن يكون المادة العلمية التي يقدمونها. فمنذ ذلك الحين، لم أصادف في حياتي أشخاصًا يفتقرون إلى الإلهام والحماس تجاه عملهم، مثل هؤلاء الأساتذة والمعلمين؛ فأمين الصندوق الذي يعمل بالبنك، ويحصي نقودًا ليست مِلكه من الأساس،

والعامِل الذي يصلح الطريق في الهواء المحموم، بين الشمس الحارقة من أعلى ومرجل القطران من أسفل، يبدوان أكثر حماسًا لتأدية عملهما.

فالأستاذ، لا بدَّ أن يُدوِّي صوته بنبرة حماسية، تثيرها بداخله المادة العلمية. أما هؤلاء المغرورون، فلم أستشعر في صوتهم أي حماس، أو موَدة، أو تساؤل، أو احترام، أو غضب، أو ثورة، أو حتى وعيّ بجهلهم. فقد كانوا يتحدثون بلا انقطاع، بنبرة متحذلقة، يتخللها بين الحين والآخر بعض التلميحات والإشارات الساخرة.

ومع حلول الظلام خارج النوافذ، كنت أرى الأخضر يتحول إلى أزرق، ثم إلى أسوَد، ليتحول معه إحساسي بالتعب إلى ضيق، ثم إلى غضب. كان ينتابني نفس إحساس الطفولة، المتمثل في كلمة "أخرجوني"، ولكن إلى أين؟ إلى البيت؟ كما كان الحال في فترة الطفولة؟ كلّا، بل إلى غرفة مؤجَّرة. وهناك كنت أخشى نوعًا جديدًا من التعب، لم أعرفه في بيت العائلة؛ تعب الوحدة في غرفة مؤجَّرة في ضواحي المدينة؛ تعب العزلة.

ما الذي استدعى أن تخشاه؟ ألم يوجد في غرفتك فراش بجوار الكرسي والطاولة؟

لم يكن يتسنى لي الهرب إلى النوم بتلك البساطة، فقد كان يصيبني التعب بقدر من الشلل، لدرجة أنني لم أكن أقدر على تحريك أصابعي، أو حتى إغلاق جفوني. بدا وكأن جهازي التنفسي قد تعطل، وكأنني أتجمد بداخل قالب من التعب. كانت تنتابني إغماءة وجيزة، إلا أنها لم تكن تُحرِّك بداخلي أي رغبة في النوم. فما إن كنت أستلقي على الفراش، حتى أظل أتقلَّب يمينًا ويسارًا، فأدخل في نوبة من السهاد والأرق، تبدأ مع الغسق، لتستمر طوال الليل، وأنا وحيدٌ في غرفتي.

تحدَّث الكثيرون عن السهاد، وكيف له أن يسيطر على أفكار الساهد ورؤيته للحياة، فالوجود بالنسبة له نكبة، وجميع أنشطة الحياة عبثية، وكل مشاعر الحب منافية للعقل. تجده مستلقيًا على فراشه، مترقبًا بزوغ الفجر، الذي يعتبره لعنة كامنة في جحيم السهاد.

مع بدايات الربيع، عندما أسمع زقزقة العصافير قبل بزوغ الفجر، أشعر وكأنهم يسخرون مني، وأنا على فراش تلك الزنزانة، يقولون: "ليلة - أخرى - بلاااا - نوم!" أسمع رنين أجراس الكنائس كل ربع ساعة، حتى الكنائس البعيدة، أسمع رنينها بوضوح. إنها أيضًا تنذر ببداية يوم سيئ، شأنها شأن صوت مواء

القطط التي تتعارك مع بعضها، لتكشف الوحشية التي تضمر قلب عالمنا. حتى صرخات وتنهيدات الشهوة المزعومة، التي تطلقها النساء لتُدوِّي في الجو الراكد، فهي تشعرني وكأن أحدهم قد نقر على زر آلة مزعجة، كي تضُجَّ بصخب مباشرة فوق رأسي. يتغمدني التشاؤم، إذ أشعر بأقنعة العاطفة والوجدان وهي تتساقط تباعًا، لتطلق العنان للأنانية والخسة. وعلى حد فهمي للقصص التي يرويها المبتلون بالسهاد المزمن، فإن نوبات الأرق المتكررة تُشكِّل حلقات متتابعة، حتى تصبح دائمة.

ولكن يا من لا تعاني من ذلك السهاد المزمن بعد: هل تحكي لنا هنا عن عوالم اللانوم أم عن التعب؟

إنني أتحدث هنا عن السهاد بوصفه نتيجة طبيعية للتعب، لكني أريد -أيضًا- أن أحكي عن أنواع أخرى من التعب، مثل ذلك الذي تتسبب فيه المرأة، فهو أشبه بالظواهر الفيزيائية، وكأنه نوع من الانشقاق، لا يصيبني وحدي، بل دائمًا ما يصيب المرأة أيضًا، وبنفس القدر. إن وقعه يشبه تقلُّب الطقس، فهو يجتاحنا من الخارج، من السماء، بل من الفضاء. ترى الحبيبين يقفان مع بعضهما، أو يجلسان معًا، أو يستلقيان سويًّا، ليفترقا فجأة، بين عشيِّة وضحاها، بلا رجعة. تلك اللحظة لا يمكن أن توصف إلا بالفَجْع. إنها تشبه السقوط: "قف! لا! كلّا!"، ولكن ما باليد حيلة.

فقد سقط كلانا، صرنا بعيدين عن بعضنا، صار كل منا غارقًا في مشاعر متزايدة من التعب، ولكنها ليست مشاعر مشتركة، فتعبي أنا هنا، وتعبكِ أنتِ هناك. يمكن أن نطلق على هذا النوع من التعب اسمًا آخر؛ مثل "الفتور" أو "الغربة"، ولكن مفهوم "التعب" يحمل في طياته معنى "الحمل الثقيل"، وتأثيره على كل ما هو حوله.

إن استشعر الحبيبان ذلك التعب وهما يجلسان سويًا في قاعة السينما، فسيبدو لهما المكان ضيقًا وخانقًا، مهما كان واسعًا ومُكيَّفًا. ستتقوَّس صفوف المقاعد المستقيمة، وستبهت الألوان على شاشة العرض. أما إذا تلامست يداهما بمحض الصدفة، فستنتفضان بعيدًا عن بعضهما، وكأن صعقة كهربائية قد أصابتهما: "في مساء يوم ... سقطت كارثة من التعب على سينما أبولو. وقع ضحية الحادث شاب وفتاة في ريعان الشباب. كانا يجلسان كتفًا بكتف، ولكن موجة الضغط التي اندلعت من التعب، دفعتهما بعيدًا عن بعضهما، حتى إنهما مع نهاية أحداث الفيلم، والذي يحمل اسم (عن الحب)، كانا قد افترقا، ومضى كل منهما في طريقه، دون أن يتبادلا أي كلمة، أو حتى نظرة واحدة".

إن هذا النوع من التعب المُزدوَج، يصاحبه عزوفٌ عن تبادل النظرات والكلمات. لم أقدر أبدًا أن أقول لها: "أنا تعِبت منكِ"، أو حتى أنبس بكلمة "تعِبت" أمامها (على الرغم من أننا لو كنا

قد أطلقنا تلك الصرخة المشتركة، لتحررنا من جحيمنا الفردي).
فذلك التعب سلبَنا القدرة على الكلام، سلبَنا أرواحنا، إلى أن افترقنا روحيًّا، وما إن لبِسَنا شيطان التعب، حتى سيطرت علينا مشاعر الخوف.



الخوف ممن؟

من بعضنا البعض. فذلك النوع من التعب، المحكوم عليه بالصمت، يقودنا إلى العنف، ولا يُشَوِّه صورة الآخر فقط، بل صورة بني جنسه أجمعين. فلا نملك إلا أن نرى الجنس الآخر قبيحًا وسخيفًا؛ تستفزنا تلك النساء اللاتي تتبخترن بأردافهن، أو أولئك الرجال، الذين لا يقفون وقفة قويمة.

يتجلى العنف، عندما نضرب الذباب بشكل عابر، أو نفتت أوراق الزهور ونحن شاردو الذهن، بل وربما نجرح أنفسنا أيضًا، فتجد هذه تعض أطراف أصابعها، وهذا يزُّج بيده وسط شعلة من النار، أو يضرب وجهه بقبضة يده، فيما تلقي هي بنفسها على الأرض وكأنها طفل صغير (رغم أنها لا تمتلك طبقات الدهون التي تحمي الصغار عند سقوطهم). أحيانًا نهجم على عدونا أو عدوتنا، فنربح هذا ضربًا، أو نسُّب هذه، محاولة منا أن نتحرر منها عبر الصراخ. فالعنف المقترن بهذا النوع من التعب

المُزدوَج، هو السبيل الوحيد إلى الخلاص، ومن بعده، نفترق، لتنتهي الحكاية.

ولكن في بعض الأحيان الأخرى يجعلنا ذلك العنف نلهث، فنتنفس الهواء، ونفكر مليًّا، حتى نعود إلى رشدنا. ربما يعود أحدنا إلى الآخر، فنُحدِّق في بعضنا، بعد أن زلزلنا ما حدث، حتى وإن عجزنا عن فهمه. صار ممكنًا أن نعاود النظر إلى بعضنا، ولكن بأعين مختلفة. "ما الذي صار لنا، في السينما، في الشارع، على الجسر؟" يعود الصوت إلينا مرة أخرى، لننطق بتلك التساؤلات بشكل عفوي، إما معًا، أو يقولها أحدنا للآخر. ذلك التعب المزدوَج هو أساس الانتقال من مرحلة الهيام الأعمى (في بداية العلاقة) إلى الجدية. لا جدوى من أن يشيرا بأصابع الاتهام صوب بعضهما، أو أن يلوم أحدهما الآخر على ما فعله. فبدلًا من ذلك، أصبحا يدركان أهمية الآخر، بوصفه شرطًا أساسيًّا لتلك العلاقة الحتمية بين الرجل والمرأة (التي كانت تُدعى سالفًا "الخطيئة الموروثة").

إن نجح الحبيبان في تخطي ذلك التعب، فقد نَجَوَا من كارثة عظيمة، وسيظلان معًا أبد الدهر. ولن يصطدما به مرة أخرى، بل سيعيشان سويًّا في سعادة ورضا، إلى أن يمُرّا بشيء آخر، أقل غموضًا منه، ولا يستحق نفس القدر من الخوف أو القلق؛ إنه روتين الحياة اليومية.

ولكن هل يطرأ هذا النوع من التعب المزدوَج فقط بين الرجل والمرأة، وليس بين الأصدقاء؟

كلا، لكن إذا ما تسلل إليّ الشعور بالتعب من أحد الأصدقاء، فأضعه في حجمه الطبيعي، فهو ليس بكارثة على الإطلاق، بل المجرى الطبيعي للأمور. فقد جمعنا طريق واحد لفترة وجيزة، إلى أن حان وقت الفراق، واثقين أننا سنظل أصدقاء. فالشعور بالتعب بين الأصدقاء ليس خطرًا، أما ذلك الذي يقتحم العاشقين الشباب، خاصة وإن لم يكن قد مضى وقت طويل على علاقتهم، فهو الخطر بعينه، إذ يضع الحب على المحَك، ويُبطل سحره بضربة واحدة، فتتلاشى تلك الخطوط التي ترسم صورة الآخر، بعد أن تتحول إلى سراب، لتختفي الصورة في غضون لحظة واحدة. هكذا، في لمح البصر، يمكن أن تنتهي العلاقة بين اثنين.

من المخيف أيضًا، أنه يمكن لأحد الطرفين أن يشعر وكأن نفسه قد بلغت منتهاها، ولم يعد لها قيمة. فقد كنت أرى نفسي قبيحًا، تافهًا، شأني شأن المرأة التي جسَّدْتُ معها كيانًا ملموسًا ذات يوم، فقد كنا "روحًا واحدة وجسدًا واحدًا"، حتى صرنا هباءً منثورًا، وصار كل ما حولنا عبثًا. فالتعب المزدوَج يهدد باجتياح مشاعر الوحدة، التي تؤثر بدورها على رؤيتنا لكافة تفاصيل الكون من حولنا. فأجدني أشعر بتساقط أوراق الأشجار، وأنتبه

إلى التدفق الكسيح لمجاري الأنهار، وأرى ألوان السماء باهتة.

ولأن الشرارة الأولى لهذا النوع من التعب تشتعل عندما ينفرد الرجل والمرأة ببعضهما، وجدتني أتجنب المواقف التي تستدعي انفرادي بأي امرأة لمدة طويلة. لم يكن ذلك أبدًا هو الحل، بل كان الجُبن بعينه.

هل تحكي عن هذا التعب المخيف والخبيث من باب الإحساس بالواجب؛ لأنه لب الموضوع الذي تطرحه بذلك الإسهاب والخمول وبتلك المبالغة؟ فقصص التعب التي ترويها هنا، تحوي قدرًا من المبالغة، إن لم تكن مُلفَّقة، وفاترة بعض الشيء.

لم يكن حديثي عن التعب الخبيث حتى الآن فاترًا "بعض الشيء"، بل كان فاترًا "تمامًا" (وأنا لا أتلاعب هنا بالألفاظ، بطريقة تجعلني أفقد الفكرة الرئيسة في سبيل تسلية القارئ). فالفتور الكامن في طيات ما أسطره هنا ليس بخطأ، بل يتناسب مع إشكالية التعب التي أطرحها. إنه توبيخ أوجهه لنفسي، لذا، سأظل محافظًا على نفس هذا القدر من الفتور، حتى وأنا أحكي عن أنواع التعب الأخرى التي عايشتها، على الرغم من أنها مُفرحة وممتعة، بل وهي التي دفعتني إلى كتابة هذه الخواطر من الأساس. يكفيني أن أتتبع الصور التي تتبادر إلى ذهني، وأن أزجّ

بنفسي داخلها كي أُعبر عنها، وأن أستعين باللغة كي أحاصرها. يكفيني استحضار الصور والدخول بقلبها، وإن كان لي أن أتمنى أي إحساس إضافي، كي أستكمل هذه الخواطر، فهو الإحساس بأشعة الشمس ونسيم الربيع، في صباح أندلسي، في شهر مارس، عند بوادي مدينة "ليناريس". كم أتوق إلى أن أحتفظ بتلك الأجواء في قبضة يدي، كي أحررها حالما أدخل إلى غرفتي، لأطلق العنان لذلك الشعور البديع، مع عصفة ريح، تحمل أريج الكاموميل البري، فأنقله أيضًا في عباراتي التالية التي ستدور حول التعب "الطيب"، لتعطي له حقه وتجعل قراءته أخف وطئًا مما سبق تناوله عن التعب "الخبيث".

في كل صباح، تفوح روائح الجيفة، فتطغى على عطور الكاموميل البري. لا بأس، سأترك النسور التي تتغذى على الجيفة تأخذ لي حقي. حسنًا إذًا، في هذا الصباح الجديد، سأستيقظ وسأبدأ، وسأسمح لقدر أكبر من الهواء والنور أن يتسلل بين سطوري، لكني سأبقى على أرض الواقع، على مقربة من بقايا الكاموميل الذي يميل بياضه إلى الصفار، وسأظل أستعين بتلك الصور المتناسقة.

لم أكن دقيقًا عندما قلت إنني دائمًا ما كنت أخشى التعب في الماضي، فأثناء طفولتي، تحديدًا في أواخر الأربعينيات ومطلع الخمسينيات (أي قبل اختراع الحصّادة ذاتية الحركة، التي تجمع

حِزَم القمح من ناحية، لتخرج الحبوب من الناحية الأخرى جاهزة للطحَّان)، كنا نطحن القمح في الإسطبل بواسطة آلة مؤجرَة، تتنقل من مزرعة إلى أخرى في فترة الحصاد، ويحتاج استخدامها إلى سلسلة من العاملين؛ يبدأ الأول بإخراج حِزَم القمح من العربة (فقد كانت العربة ضخمة ومتكدسة بأكوام عالية، تعوق دون دخولها إلى الإسطبل)، ثم يناولها لزميله، الذي بدوره يمررها بحرص (محاولًا أن يتجنب ناحية السنابل التي يصعُب إحكامها) إلى العامل الرئيس، المسؤول عن الآلة.

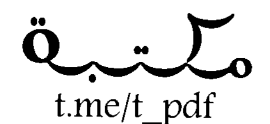
كانت الآلة ضخمة، صاخبة، تتذبذب لدرجة تجعل الإسطبل بالكامل يهتز معها. وكان العامل المسؤول يُقلِّب حزم القمح ويدفعها بحذر إلى الداخل، فيُسكَب الهشيم من الناحية الأخرى ويتكوَّم، ليحركه العامل التالي بواسطة مذراة خشبية طويلة إلى أطفال القرية، وهم آخر حلقة في تلك السلسلة. كان هؤلاء الصغار يحرصون على التواجد بكامل عددهم، يتَّخذون مواقعهم في مخزن التبغ أعلى الإسطبل، ينقلون القش إلى أقصى الحواف، يدفعونه ويركلونه بأقدامهم كي يُكدسونه حتى تمتلئ الحواف عن آخرها. ومع تكدُّس القش من حولهم، تجد الظلام يحاصرهم شيئًا فشيئًا. كانت تستمر كل تلك الخطوات بلا انقطاع، بطريقة ممنهجة ومتناسقة ومتلاحقة وسريعة، إلى أن يتم تفريغ العربة. يمكن لأبسط خطأ في أي حركة أن يؤدي إلى التعثر والعطلة، أما من يقف في آخر حلقة من تلك السلسلة، فهو يعرِّض نفسه

للاختناق نحو النهاية، إذ يقف مقيدًا ومحشورًا بين جبال القش، عاجزًا عن إيجاد موقع وسط الظلام، ليضع فيه آخر حفنة أُلقِيَت إليه، وإن ترك موقعه؛ يتعطل العمل.

حالما تنتهي تلك الخطوات، وتتوقف تلك الآلة التي تصُمُّ الآذان، ويتسلل النور إلى داخل الإسطبل، فإذا بالمشهد يتغير تمامًا. يا لذاك السكون الذي يعم أرجاء المكان، ويا لذاك النور الذي يطوينا دون أن يعمينا؛ فبينما تستقر غيوم الغبار، نجتمع معًا في ساحة المزرعة، ترتعش ركبتانا، فنتهاوى ونترنح، ولكن لم يَخْلُ ذلك أبدًا من المرح. تجد أيادينا وسيقاننا مخدوشة، وفتات القش يملأ رؤوسنا، ويستقر بين أصابع أيادينا وأقدامنا، أما فتحات أنفنا (رجالًا ونساءً وأطفالًا) فلم تكن رمادية اللون، بل سوداء، يملؤها التراب. هكذا جلسنا بالخارج، تحت شمس الأصيل، نستمتع بنكهة ذلك التعب المشترك. تجد بعضنا يتحدث، وبعضنا يصمت، بعضنا يجلس على الدكة أو فوق مقبض العربة، وبعضنا على أرض الحقل، حيث العشب الباهت. تجمَّع الجيران كافةً، كبارًا وصغارًا، في تناغم وانسجام، على أوتار ذلك التعب المشترك. فقد جمَعَتنا ووحَّدَتنا سحابة من التعب الأثيري، إلى أن تصل الشحنة التالية. وحتى الآن، ما زلت أحتفظ في جعبتي بمثل تلك الصور من تعب ال "نحن"، التي تعود إلى فترة طفولتي في القرية.

ألم تُبجِّل الماضي بتلك السطور؟

نعم، إنني أقدِّس تلك الفترة.



ولكنك تُظهِر هنا تباينًا واضحًا بين العمل اليدوي مع الجماعة، والعمل الفردي بواسطة الحصَّادة! أليس ذلك مجرد رأي يشوبه بعض التعسف؟

لم أحكِ ما سطرته كي أُظهر أي تباين، بل فقط كي أرسم تلك الصورة، ولكن إن كان ذلك التباين قد فرض نفسه بقوة (على عكس رغبتي)، فهذا يعني أنني لم أوَفَّق في عرض صورة مجردة أو خالصة. وفي ما يلي، سأنتبه أكثر من ذي قبل، كي لا أحيد عن الموضوع الذي أنتوي تناوله، فأجد نفسي ضمنيًّا أتناول غيره. وسأحاول ألا أسهب في شرح شيء ما على حساب شيء آخر، كما هي الحال مع ثنائية الخير والشر في نهج المانوية، وهو نهج سائد في أساليب السرد المتحررة التي تُقدِّر حرية التعبير؛ يتجلى هذا النهج في عبارة كهذه: "سأحكي لكم الآن عن البستاني الطيب، تمهيدًا لما سأخبركم إياه في ما بعد عن الصياد الشرير".

وفي واقع الأمر، أجدني أستحضر صورًا مؤثرة، يمكن أن أوظِّفها كي أحكي عن التعب الذي يُصيب العمال اليدويين، فيما لا أملك (حتى الآن) أي صورة تستحضر التعب الذي

يقترن بتشغيل الآلات.

في ذلك الوقت، أثناء شعوري بذلك التعب المشترك بعد الانتهاء من مراحل الطحن، وجدت نفسي جالسًا بين ما يمكن أن نطلق عليه "شعبًا". ظللت بعد ذلك، وأنا أمضي في حياتي قدمًا على أرض موطني، النمسا، أتمنى أن أجد شعبًا مماثلًا، ولكن أبدًا لم يحالفني الحظ. أنا لا أشير هنا إلى تعب شعوب بأسرها، ولا إلى التعب الذي يصُّب حمله فوق جفن فرد واحد، بل إلى التعب الذي كنت أتمنى أن يتسلل إلى مجموعة بعينها من شعب جمهورية النمسا الثانية في فترة ما بعد الحرب. كم كنت أوَد أن تجتمع مختلف المجموعات والطبقات والائتلافات والمؤسسات والجماعات الكاتدرائية معًا، ليذوقوا التعب الذي اجتاحنا، نحن أهل القرى. حينها، كنا سنتساوى جميعًا في نفس القدر من "التعب المشترك"، لنتَّحِد به، وننقى بسببه.

ذات مرة، روى لي صديق فرنسي يهودي (اضطُر إلى العَيْش في الخفاء في فترة الاحتلال الألماني)، أنه ظل لمدة أسابيع بعد تحرر وطنه، يتراءى له، وكأن شعاعًا من النور قد عمَّ أرجاء البلاد. كنت سأشعر بذلك، لو كنا قد تشاركنا جميعًا في "تعب نمساوي"، أثناء العمل على إعادة بناء الوطن.

ولكن المجرم الذي ينجو بفعلته، لا يجد صعوبة في الخلود إلى النوم في أي وضع؛ جالسًا كان أو مستلقيًا. فالهارب ينعم

بنوم طويل وعميق، لا يخلو من الشخير، فهو لا يعرف شيئًا عن التعب، فما بالك بذلك التعب الذي يوحِّد الأفراد؟ ولا شيء في العالم بأسره يمكن أن يصيبه بذلك الشعور، إلا إذا تلقَّى العقوبة التي يستحقها، ولعله يتوق إليها في الخفاء.

وطني يمتلئ عن آخره بمثل تلك النماذج، بما فيهم القادة، الذين تهربوا من الانضمام إلى جيش التعب. هناك حشد عظيم من المجرمين وأعوانهم، رجالًا ونساءً، أكبر سنًّا من أولئك الذين تحدثت عنهم في ما سبق، أياديهم ملطخة بالقتل الجماعي. إن هؤلاء لا يعرفون التعب، وسلَّموا رايتهم إلى جيل جديد لا يعرف عنه شيئًا، بل يتولى الآن تدريب أحفاد هؤلاء القتلة، كي يصبحوا عملاء شرطة سريين. وفي ظل تولي الفسدة زمام الأمور، صار صعبًا على الأقليات (على الرغم من كثرتهم) أن تتجمع كي تُشكِّل معًا "شعب التعب". وهكذا، سيظل كل منا وحيدًا مع تعبه الخاص حتى النهاية.

كنت أتوَسَّم الخير في محكمة العدل الدولية، عندما ظننت أنها من الممكن أن تلعب دورًا مفيدًا، يصُب في مصلحة وطني، ولكن يبدو أنها تلاشت من الوجود. أو لنقُل ذلك بطريقة أخرى: لم، ولن، يتم تفعيل قرارات محكمة العدل الدولية في ما يتعلق بالشأن النمساوي. هذه هي الحقيقة التي أدركتها بعد أن تغمدني الأمل للحظات وجيزة. لا توجد محكمة عدل دولية، أما شعبنا، فهو أكثر

الشعوب فسادًا في التاريخ، ولا سبيل إلى تقويمه، وسيظل هكذا إلى الأبد؛ عاجزًا عن التوبة والهداية.

أليس هذا التوكيد مبنيًا على وجهة نظر شخصية؟

ليست وجهة نظر بقدر ما هي صورة، رأيتها على الفور، حالما طرأت إلى ذهني. ما يمكن أن يكون وجهة نظر شخصية هو كلمة "شعب"، وهي لا تنطبق على "مجموعة اللاتعب". فقد ذكرت تلك المجموعة التي لا تتوب، فقط كي أُظهِر تناقضها مع "شعب التعب".

مع تفقُّد أثر عائلتي، تبيَّن لي أن أجدادي من عائلة "كويشلر"؛ فلاحون بسطاء ومعدمون. إن كان أيٌّ منهم موهوبًا في أي حرفة، فهي النجارة. لطالما كنت أرى النجارين بالمنطقة مجتمعين سويًّا، وكأنهم "شعب التعب". كان ذلك أيام إعادة البناء بعد انتهاء الحرب، وبوصفي أصغر الأطفال سنًّا، فدائمًا ما كانت ترسلني والدتي، أو جدتي، أو زوجة أخي، أو غيرهن من نساء العائلة، كي أسلِّم وجبة الغداء الساخنة إلى عُمال البناء.

لقد شارك في أعمال البناء جميع رجال العائلة، الذين لم يلقوا حتفهم في الحرب. حتى جدي، الذي بلغ من العمر آنذاك ستين عامًا، عمل معهم في نصب الأسقف. أراهم في الصور المترسخة

في ذهني وهم يتناولون الغداء سويًا، في مكان ليس بعيدًا عن مرأى بصري بالمنزل. كانوا يجلسون على الأخشاب الخشنة، أو جذوع الشجر المقشورة، بعد أن خلعوا قبعاتهم. كانت هيئتهم واحدة؛ نحيفي البنية، ولكن مشدودي العضلات، يلتصق شعرهم بجبينهم، الذي بدا أكثر بياضًا من بقية وجههم. كلهم لطفاء، ودودون، ويتناولون الطعام بتريُّث وسكون. حتى زوج أمي الألماني، الذي لم يصمد في بلد غريب، وفي قرية لا يألفها، إلا بفضل فمه الثرثار، فقد كان يأكل معهم في صمت. وبعد الانتهاء من الوجبة، كانوا يتحدثون سويًا لبعض الوقت، دون مزاح، دون شكوى، ودون أن تعلو أصواتهم، إما عن العائلة، أو عن أحوال الطقس، بينما يتجنبون الخوض في تقسيم أعمال ما بعد الظهيرة بينهم.

على الرغم من وجود رئيس لهم، لم أشعر أبدًا أن أيًا منهم كان مُهيمنًا أومنفردًا بإصدار الأوامر. وبطريقة ما، شكَّل هذا أحد أسباب التعب الذي صاحبهم. ولكن، على الرغم من ثِقل جفونهم والتهابها، إلا أن كل فرد منهم كان مثالًا لليقظة، وسرعة البديهة، وحضور الذهن ("خذ!"، يلقي أحدهم بثمرة تفاح إلى زميله، "أمسكتها!").

كانت تتداخل أصواتهم بشكل عفوي، أثناء سردهم الحكايات: "قبل الحرب، عندما كانت أمي لا تزال على قيد الحياة، كنا نذهب

لزيارتها في مستشفى "سانكت فيت"، ونعود إلى البيت مشيًا لمسافة تقارب الخمسين كيلومترًا على طريق "تريكسن"".

يجف شعرهم المبلل من العرق، ليبرز خارج حواف القبعات التي وُضعت على الرؤوس مرة أخرى.

إن الأشكال والألوان التي تتبادر إلى ذهني في تلك الصور التي ترسم ملامح "شعب التعب"، تتلخص في زرقة السروال الجينز، وحمرة وبنفسجية أقلام النجارين البيضاوية، وصفار عصا القياس، وفقاعات الهواء الدائرية داخل المشاريب.

لا حاجة لراديو الترانزستور عند مواقع البناء، فقد كنت أسمع صوتًا أشبه بالموسيقى، يدوِّي من هناك؛ موسيقى التعب، ولكن لم يكن لي دور معهم (كما كانت الحال مع آلة الطحن)، ما جعلني أحسدهم.

أما في فترة المراهقة، تسنى لي أن أكون واحدًا منهم، ولكن في ظل أوضاع مختلفة تمامًا عما ترسخ في مُخيِّلة ذلك الطفل الصغير، الذي كان يحمل وجبة الغداء إليهم. فبعدما توفِّت جدتي، وتخلَّى جدي عن العمل بالزراعة، تفكك بيت العائلة. ولذلك، قرر والدي أن يُشيِّد لنا بيتًا خاصًّا، وتعيَّن على سائر أفراد العائلة (في ما عدا الأطفال الصغار) أن يشاركوا في عملية البناء. وهكذا، وجدت عملًا عرفت معه نوعًا جديدًا من التعب.

اقتصر عملي على دفع عربة يدوية مُحمَّلة بالأحجار، صعودًا إلى موقع البناء، الذي لا يمكن أن تصل إليه شاحنات النقل. كنت أخطو على لوح خشبي من فوق الطين. لم أعتبر تلك المهمة عملًا مشتركًا، بل كدحًا شاقًا، فالمجهود الجبار الذي كنت أبذله كي أدفع كل ذلك الحِمْل إلى أعلى، منذ بكرة الصباح وحتى المساء، كان يستنزفني، لدرجة أنني لم أكن أبصر ما حولي. كنت فقط أحملق في اتجاه الأحجار الرمادية الخشنة، التي أنقلها بالعربة، وفي بخار الأسمنت الرمادي الذي يحاصرني، وفي المفاصل التي تربط بين ألواح الخشب التي أخطو عليها، فقد كانت تجبرني أن أرفع العربة وأميلها عند المنعطفات والزوايا. وما زاد الطين بلة، هو أن العربة كثيرًا ما كانت تنقلب عند تلك الفراغات، لتأخذني معها أرضًا.

عرفت معنى السخرة والعبودية في تلك الأسابيع. كنت مع نهاية كل يوم أشعر بالدمار التام. كانت يداي مكدومتين، وأصابع قدمي محروقة من الأسمنت الذي يتسلل إليهم. لم أكن أجلس على الكرسي، بل أرتمي إليه. ولم أكن أقدر على بلع الريق، ما جعلني أعزف عن الطعام والكلام. لم يسمح لي هذا التعب بأي راحة، فما إن كنت أنام فور استلقائي على السرير، حتى أستيقظ مع بزوغ الفجر، لأبدأ العمل من جديد. ازداد شعوري بالتعب يومًا بعد يوم، فقد سلب مني ذلك العناء أساس إحساسي بالحياة، لدرجة أن ضوء الصباح الباكر ونسيم الهواء العليل، تحوَّلا إلى إشارة

صريحة، تنذر بعدم وجود أي مفر من ذلك الموت الحي.

عندما كنت أُكلَّف بأي مهام منزلية، سرعان ما كنت أفكر في أساليب مراوغة واحتيال للتملص منها، إلا أنني من فرط شعوري بالإنهاك في تلك الفترة، كنت أعجز عن التفكير في أبسط الحجج، مثل: "عليَّ أن أذاكر، فلديَّ امتحان قريبًا"، أو "سأذهب إلى الغابة، كي أجمع عش الغراب". وعلى الرغم من أن ذلك العمل كان يصُب في مصلحتي الشخصية، ومنزلي الخاص، إلا أن شعوري بالتعب لم يختلف عن شعور أي عامل مأجور لإتمام تلك المهام. ولكن إحقاقًا للحق، عليّ أن أقِرَّ، أن أحدًا لم يسلم من أداء المهام الشاقة، مثل حفر الخنادق لخطوط المياه (فهي حقًّا مهمة بغيضة).

ومن الغريب، أن حدَّة ذلك الشعور بالتعب أخذت تخِّف مع مرور الأيام، حتى صار أشبه بإحساس الروح الرياضية، أو الطموح المشترك، الذي لا يخلو من حس الفكاهة في المواقف المشؤومة.

وقد عايشت نوعًا آخر من التعب في فترة الدراسة، أثناء عملي بالدوام الصباحي في غرفة الشحن التابعة لأحد المتاجر الكبرى. كنت أستيقظ في الرابعة فجرًا كي ألحق بالمترو، ثم أتبوَّل في زجاجة مربى فارغة، كي لا أزعج أفراد البيت، وبعدها أخرج دون أن أغتسل. كنت أعمل في الأسابيع التي تسبق ذروة عيد الفصح وعيد الميلاد، في غرفة الشحن بالطابق الأخير، تحت أنوار الضوء

الصناعي، حيث أفكك الكارتون ثم أقطِّعه على شكل مستطيلات كبيرة بواسطة مقصلة ضخمة، كي يُستخدم في دعم الكراتين الجديدة، التي يتم تعبئتها وتخزينها في الغرفة المجاورة. وعلى المدى البعيد، كان لهذا النشاط أثرٌ طيبٌ عليّ (مثل تقطيع ونشر الخشب في قريتي)، إذ كان يحررني من التفكير نوعًا ما.

كان يتجلى شعوري الجديد بالتعب، عندما نطأ بأقدامنا خارج المتجر، ليمضي كل منا في طريقه بعد انتهاء فترة العمل. كنت غارقًا في التعب وأنا وحدي؛ نظَّارتي يكسوها الغبار، وياقة قميصي متسخة ومجعَّدة. وجدتني أنظر إلى الشارع الذي آلفه بأعين جديدة، فلم أعد أعتبر نفسي أحد هؤلاء المارة الذين يسلكون الجهات المختلفة؛ إلى المتاجر، أو محطة القطار، أو السينما، أو الجامعة. فعلى الرغم من إحساسي بالتعب، إلا أنني كنت يقظًا، لم يغلبني النعاس، ولم أكن منطويًا، ولكني شعرت بإقصائي من المجتمع. انتابني إحساس غريب في تلك اللحظة، وكأنني أسير وحدي في اتجاه معاكس لكل هؤلاء البشر. لم أكن أتجه إلى أي مكان، بل إلى الضياع.

كنت أدخل قاعة المحاضرات بعد الظهيرة وكأنها غرفة مُحرَّمة. وجدت صعوبة (أكثر من ذي قبل) في الاستماع إلى أصوات الأساتذة المتكاسلة. لم أكن معنيًّا بما يقولون، ولم أكن حتى ضيفًا مستمعًا. أجدني كل يوم أتوق إلى العودة إلى الطابق العلوي؛ إلى

زملائي في التعب. واليوم، وأنا أستحضر تلك الصورة، أدرك أنني حتى عندما كنت شابًّا صغير السن، لا يتجاوز عمره التسعة عشر أو العشرين عامًا، قبل أن أحترف الكتابة، لم أشعر أبدًا أنني أحد الطلاب، حتى وأنا جالس بينهم في قاعة المحاضرات. ياله من شعور بغيض أكثر منه مخيفًا.

ألا تلاحظ تلك الرومانسية التي تستحضر بها مظاهر التعب عند الفلاحين والحرفيين، فيما لم تلتفت إلى الطبقة المتوسطة أو العليا؟

لم أصادف في حياتي أي صورة تعكس تعب الطبقة المتوسطة.

ألا يمكنك على الأقل أن تتخيل أي صورة؟

كلّا، إذ يبدو لي أن التعب لا ينطبق عليهم، فهم يعتبرونه سلوكًا سيئًا، مثل السير بقدمين حافيتين، كما أنهم يعجزون عن استحضار صور التعب؛ لأن الأنشطة التي يمارسونها لا تمت له بصلة. أقصى ما يمكن أن يصلوا إليه هو أن "يبدو عليهم التعب"، ولكن من منا ليس كذلك؟ بالإضافة إلى ذلك، فإنني أعجز عن تصَوُّر أشكال التعب التي يمكن أن تُصيب الأغنياء وأصحاب السلطة، باستثناء كل من "أوديبيوس"، و"الملك لير".

وعلى صعيد آخر، فانتشار المصانع المُميكنة جعلني بالكاد أجد عمالًا ينهكهم التعب مع نهاية اليوم؛ فلم أعد أرى سوى مجموعة من الجهلة، يسارعون إلى أقرب آلة قُمار، كي يواصلوا عاداتهم الطائشة (أعلم ما ستقوله الآن: "لا بدَّ أن تشعر بالتعب بنفسك، كي تصدر أحكامًا عادلة"، ولكن في بعض الأحيان، عليّ ألا أكون عادلًا، بل كثيرًا ما يروقني ذلك. وعلى أي حال، فإنني بالفعل أشعر بالتعب بسبب مطاردة تلك الصور التي أعرضها هنا).

وبعد فترة، عرفت نوعًا جديدًا من التعب، قريبًا من ذلك الذي تملَّكني في غرفة الشحن. كان ذلك عندما احترفت الكتابة، إذ كنت أواظب عليها يومًا بعد يوم ولعدة أشهر، وعندما كنت أخرج إلى الشارع، كنت أشعر وكأنني فقدت صلتي بكل من حولي. ها هو ذاك الشعور يعود إليّ من جديد، ولكنه لم يضايقني هذه المرة، فلم أعد أكترث بانفصالي عن الحياة اليومية المعتادة. بل على النقيض، فبينما كانت مشاعر التعب لديّ تتحول إلى إرهاق، كان انعزالي هذا يفرز بداخلي إحساسًا عذبًا. لم يكن المجتمع غير متاح لي، بل كنت أنا غير متاح للمجتمع، ولكل من حولي.

ما الذي يعنيني في حفلاتكم، وأعيادكم، وأحضانكم؟ ها هي الأشجار والأعشاب، ملكٌ لي، وها هي شاشات السينما، التي يعرض فيها الممثل الأمريكي "روبرت ميتشوم" فنَّه الإيمائي

لي أنا وحدي، وها هو مشغل الموسيقى كي أسمتع إلى المغني الأمريكي "بوب ديلن" وهو يغني لي أنا وحدي أغنيته الشهيرة: (Sad-Eyed Lady of the Lowlands)، بينما يشدو نظيره "راي ديفيس" أغنيته وأغنيتي أنا أيضًا: (I'm Not Like Everybody Else).



ألم يكن ذلك النوع من التعب مهددًا بالتحول إلى غرور؟

بالتأكيد، فقد تحولت بالفعل إلى كتلة من الغرور. صرت شخصًا باردًا، يحتقر الآخرين، أُقلل من شأن المهن الأخرى (التقليدية)، التي لا يمكن أن ترقى إلى مستوى "التعب المَلَكي" الذي يتسلل إليّ أثناء تأدية عملي. فبعد الانتهاء من الكتابة، حرصت على أن أظل "ممنوع اللمس"، وكأني متوَّج على عرشي. حقًّا، لم أسمح لأي شخص أن يلمسني، وأنا في أوج اعتزازي بذلك التعب.

وفي وقت لاحق بدأت أدرك التعب، الذي يعطي المساحة للآخرين كي يصلوا إليّ، كي يلمسوني وألمسهم، لكنه نادر الحدوث، ولم يتكرر منذ زمن بعيد، شأنه شأن المعجزات، التي انحصرت في فترة معينة من الوجود الإنساني، ولا تتكرر إلا في المواقف الاستثنائية، مثل الحروب، والكوارث الطبيعية، وغيرها من أوقات المحن. وفي إحدى المرات القليلة، التي رُزِقت فيها بذلك النوع من

التعب، كنت أمُرُّ بمحنة شخصية، ومن حسن حظي، أنني قابلت شخصًا آخر، يمر بظروف مشابهة. كانت امرأة (كالعادة)، ولم تكن المحنة المشتركة هي السبب الأوحد وراء التعب الشهواني الذي جمعنا ببعض.

إليكم شروط نجاح العلاقة بين الرجل والمرأة: لا بدَّ أن يجتازا سويًّا طريقًا طويلًا وشاقًّا، وأن يوطدا قدميهما على أرض غريبة، بعيدًا عن أي مكان يألفانه. لا بدَّ أن يتصدَّيا سويًّا لأي شكل من أشكال الخطورة، أو أن يواجها معًا فترة طويلة من الارتباك، على أرض العدو التي يمكن أن تصبح في نهاية المطاف وطنًا لهم. فذلك التعب الذي يحِل عليهما بعد أن استقرا في الملاذ الجديد، من شأنه أن يوحدهما بطريقة طبيعية وحميمة، لا تضاهيها أي علاقة أخرى، حتى وإن لم تخلُ من مشاعر الحب. "كأنهما يتبادلان الخبز والخمر" هكذا يصف أحد أصدقائي حميمية الرجل والمرأة.

أريد هنا أن أُغيِّر إحدى العبارات التي جاءت في أحد أفلام المخرج الإنجليزي "ألفريد هتشكوك"، على لسان الممثلة السويدية "إنجريد برجمان" وهي سكرانة، وتحاول أن تغازل الممثل الأمريكي "كاري جرانت"، الذي تملَّكه التعب، حيث قالت له: "امرأة سكرانة، ورجل مُتعَب، سيقيمان سويًّا علاقة ناجحة". والآن، إليكم لمستي في هذه العبارة: "امرأة مُتعَبة، ورجل مُتعَب،

سيقيمان سويًّا أنجح علاقة".

وبالمناسبة، يروقني، كيف أن اللغة الإسبانية تستخدم كلمة واحدة لتحمل معنى "معك" وهي كلمة: (contigo)، فيما أنها في اللغة الألمانية تتكون من كلمتين: (Mit dir). أيضًا، لماذا لا نقول: "لقد تعبت معك" بدلًا من: "لقد تعبت منك"؟

في ضوء هذه الاقتراحات والخواطر الاستثنائية، أريد أن أشير إلى أنني لا أضع "دون خوان" في قالب "زير النساء". فبالنسبة لي، ما هو إلا بطلٌ مُتعَب، ويصادف امرأة مُتعَبة في الوقت المناسب. ولهذا السبب، تتهاوى النساء بين أحضانه، دون أن يحزنَّ عليه بعدما تخِّف حدَّة التعب الشهواني وألغازه.

إن ما يحدث بين أي اثنين، تشاركا في التعب الشهواني، يظل خالدًا إلى الأبد، فذلك التضافر الذي عايشاه معًا سيدوم، دون الحاجة إلى تكراره مرة أخرى. والسؤال الذي يطرح نفسه هنا: "كيف لـ"دون خوان" أن يستحضر هذا التعب الشهواني، الذي يجمعه مع عشيقاته، مرة بعد مرة؟ فهن لسن واحدة أو اثنتين، بل ألف وثلاث. ينقش كل طرف أثره في جسد الآخر، فتصبح مشاعر الإثارة حقيقية، غير زائفة، منسجمة، وبالتأكيد عفوية. فذلك التعب الشهواني يجعلنا نضيع في جسد الآخر.

ما الذي لم تتناوله بعد؟

مشاعر من التعب، أكثر تعقيدًا.

هل توجد مشاعر أكثر تعقيدًا من تلك التي أشرت إليها؟

قبل عشر سنوات، كنت على متن طائرة ليلية من "أنكوريج، ألاسكا"، إلى "نيويورك". ومع حركة المد، كان الجليد الطافي يتجه إلى أعلى، ليتحول إلى لون داكن مع حركة الجزر، ويرتطم بالمحيط مرة أخرى. توقَّفَت الرحلة في "إدمونتون، كندا"، مع شروق الشمس الذي تخلله تساقط شديد للثلج. ثم توقَّفَت مرة أخرى في "شيكاغو"، بعد الدوران في مهبط المطار، ثم الانتظار في مدرج الإقلاع والهبوط تحت شمس الصباح الحارقة، إلى أن هبطنا أخيرًا في "نيويورك"، حيث سادت أجواء ما بعد الظهيرة الخانقة.

عندما وصلت إلى الفندق، أردت أن أتجه مباشرة إلى الفراش، بعد معاناة دامت ليوم كامل بلا نوم أو هواء أو أي حركة، ثم وقع بصري على حديقة "سنترال بارك"، التي تخللها ضوء شمس الخريف المبكِّر. بدا الناس وكأنهم يتنزهون في إجازتهم؛ أردت أن أنضم إليهم، وشعرت أنني سأهدر على نفسي الكثير، إذا ما بقيت داخل الغرفة. جلست في التراس الخارجي لأحد المقاهي،

كي أشعر بالشمس، ولكني كنت على مقربة من الصخب ودخان السيارات. كنت مشوَّشًا بعض الشيء، وأشعر بقليل من الدوار بسبب حاجتي إلى النوم، وفجأة تغيَّرت حالي تمامًا، لا أعلم كيف؟ ولا أتذكر إن كان قد حدث ذلك بشكل تدريجي أم فجائي.

قرأت ذات يوم، أننا يمكن أن نتغلب على الاكتئاب، إذا عزفنا عن النوم ليلة بعد ليلة. يبدو أن هذا العلاج قد ساهم في تثبيت "جسر الأنا المُعلَّق"، بعد أن كان مهددًا بالسقوط. حيث بدأ شعوري بالتعب يتنحَّى بعض الشيء، وكأن ذلك التعب يحمل في طياته الشفاء. وهنا، انتهى عراكي معه، بل وأصبح صديقًا لي. شعرت أنني عدت إلى العالم مرة أخرى، ليس لأنني كنت في قلب "مانهاتن"، بل لعدة أسباب، كلها أكثر سحرًا من بعضها. ظللت يقظًا حتى وقت متأخر من تلك الليلة. لم أفعل أي شيء سوى الجلوس ومراقبة كل ما حولي. بدا وكأنني لست في حاجة لأن أتنفس، ولم أكن في حاجة إلى تمارين اليوجا، فالوصفة بسيطة: "فقط اجلسْ وتنفَّسْ بانتظام أثناء شعورك بالتعب".

مر بجواري العديد من النساء الفاتنات، دمعت عيناي من فرط جمالهن الخلاب. كلهن رمقنني بنظراتهن، فشعرْتُ بوجودي (من الغريب أنهن لاحظن نظرات التعب التي بدت عليّ، شأنهم شأن الأطفال الصغار وبعض الرجال المسنين). لم تفكر أيٌّ منهن، في التعرف عليّ، ولم أفكر أنا في التعرف على أي منهن. أردت فقط

أن أنظر إليهن. نظراتي كانت نابعة من متفرج يشاهد مسرحية، لا يمكن أن تنجح إلا إذا جلس شخصٌ مثله في صفوف الجماهير. لعِبَت نظراتي التعِبة دورًا فعَّالًا في ذلك العرض. فبفضلها، تحسن أداء الممثلين، وبدوا أكثر جمالًا من ذي قبل؛ لأن نظراتي لهم لم تكن في عُجالة، وعيناي أعطتهم حقهم.

أما عن المتفرج، فشعوره بالتعب قد أبطل غروره، الذي طالما أشعل الاضطراب في أعماقه، كما خلَّصه من كل التشوهات والتعقيدات والعادات السيئة، بينما حافظ له على عينيه الغامضتين، مثل عينَي الممثل الأمريكي "روبرت ميتشوم". تلك النظرات تخطَّت النساء الفاتنات اللاتي مررن بجواري، لتشمل كل ما كان يتحرك من حولي. جزَّأ التعب كل تفاصيل الفوضى التي أحاطتني، لم يفككها، بل جعلها أكثر وضوحًا، واستعان بإيقاعها كي يُضفي عليها شكلًا، فرسمها إلى أبعد مدى يمكن أن يرنو إليه البصر، في آفاق التعب الواسعة.

ماذا عن مشاهد العنف، والاشتباكات، والصراخ، هل ظهرت في ذلك الأفق الواسع؟

إنني أتحدث هنا عن التعب في فترة السلم. ففي تلك الساعات، عمَّ السلام أرجاء حديقة "سنترال بارك". وما يدعو للدهشة، هو

أن التعب الذي لحق بي، لعب دورًا هامًّا في تعزيز ذلك السلام اللحظي. فنظرات التعب على وجهي هدَّأت ولطَّفت من روع كل إيماءة عنيفة، أو مشاجرة، أو حتى سلوك فاتر.

ما الذي ميَّز تلك النظرة؟

كنت أنظر إلى الشخص، وأرى معه شيئًا ما، فأراه مثلًا مع الأشجار التي يتمشى تحت ظلالها، أو مع الكتاب الذي يحمله في يده، أو مع الضوء الذي يقف تحته، حتى وإن كان ضوءًا صناعيًّا لأحد المتاجر. كنت أنظر إلى ذلك الرجل الأنيق مع بدلته الفاتحة، ومع زهور القرنفل التي يحملها، فيما يقع بصري على هذا المسافر مع حقيبته الثقيلة، أو ذاك الرجل الضخم مع طفله الذي يحمله فوق كتفه. حتى أنا، كنت أرى نفسي مع أوراق الشجر المتطايرة، وأرى المشهد العام مع السماء التي تعلونا.

ماذا لو لم يكن يوجد شيء؟

كنت سأخلق شيئًا بنفسي، فيشعر الشخص الضال في الخلاء، بهالة ذلك الشيء من حوله.

أضفَى شعوري بالتعب شكلًا وتسلسلًا للأحداث المنفصلة

التي تدور من حولي. شعرت بها جميعًا وهي تتسلل إلى داخل أعماقي، حيث شكَّل كل منها جزءًا من الحكاية، التي سرعان ما تناغمت عناصرها، وأُحكِمت بنيَتها. أخذت الأحداث تقُصّ نفسها بنفسها دون الحاجة إلى كلمات. هكذا ساهم تعبي في تخلص العالم من جميع المسميات، حتى صار أكثر جمالاً.

ينعكس سلوكي اللغوي تجاه العالم من خلال أربع صور: في الصورة الأولى، أجد نفسي صامتًا، ومستبعَدًا من الأحداث. وفي الصورة الثانية، تتحرك الأصوات والأحاديث من مكانها الخارجي، كي تتسلل إلى أعماقي، وعلى الرغم من أنني لا أزال صامتًا، إلا أنني أقدر على الصراخ. أما في الصورة الثالثة، فيتملكني الإحساس بالحياة، لأبدأ بشكل عفوي أقُص الحكايات، جملة بعد جملة، لشخص بعينه، أو لطفل صغير، أو لصديق مقرَّب. وأخيرًا، تلك الصورة التي تترك أثرًا باقيًا في نفسي. فمع ذلك التعب الذي تصاحبه البصيرة، يحكي العالم قصته دون كلمات، في طيات السكون التام. يحكيها لي، ولهذا الرجل العجوز الذي يجلس هنا بجواري، ولتلك المرأة الجميلة التي تمر من هناك. فجميع تلك القصص السلمية ما هي إلا حكاية. فعلى عكس الحروب والمعارك، التي تحتاج إلى شاعر أو مؤرخ كي يُشكِّلها، تتشكل تلك القصص السلمية من تلقاء نفسها أمام عينيَّ، لتتحول إلى ملحمة مثالية.

مثالية؟

نعم، مثالية. فالأحداث سليمة، وعلى الرغم من كثرتها وتنوعها، لا يُعرض أي منها بشكل أكثر أو أقل من اللازم. كل ما تحتاجه الملحمة هو عالمها الخاص، وتاريخ تحكي في إطاره أحداثها. هل هذه هي اليوتوبيا؟ لقد قرأت ذات يوم، أن اليوتوبيا لا وجود لها.

كان "تعبي اليوتوبي" في ذلك اليوم مرتبطًا بمكان بعينه؛ حديقة "سنترال بارك"، التي تسللت إلى عقلي واحتفظت برائحتها، على الرغم من أنني لم أزُرها من قبل. وعندما عاودت زيارتها مرة أخرى، استحضرت نفس التعب. وهناك، فوجئت بالغرباء يتحدثون إليّ، ربما لأنني بدَوْت مألوفًا لهم، أو ربما بلا سبب محدد.

في "إدينبورغ"، ظللت لساعات طويلة أحدِّق في مجموعة لوحات "الأسرار السبعة" للرسام الفرنسي "نيكولا بوسان"؛ المعمودية، والعشاء الإلهي، وغيرهما. وبعدها، جلست في أحد المطاعم الإيطالية وأنا في غاية التعب. أجزم جميع الندلاء، أنهم رأوني من قبل، كلٌّ في مكان مختلف. فالأول رآني في "سانتوريني"، التي لم يسبق لي زيارتها. والآخر رآني في الصيف

الماضي عند بحيرة "غاردا"، على الرغم من أنني لم أكن هناك.

في القطار المسافر من "زيوريخ" إلى "بيل"، بعد سهري طوال الليل احتفالاً بانتهاء الدراسة، جلسَت شابة يافعة في الجهة المقابلة لي. هي -أيضًا- لم تنم طوال الليل، بسبب حضورها حفل ختام أحد سباقات الدراجات. إذ كانت تعمل بأحد البنوك الراعية للسباق، وتم تكليفها بالإشراف العام عليه، وتقديم الزهور والقبلات للفائزين. صارت الحكايات تتدفق من فم تلك الشابة المتعَبة بمنتهى العفوية، وكأننا نعرف بعضنا جيدًا. أحد المتسابقين الذين ربحوا للمرة الثانية على التوالي، ونال منها في ذلك اليوم قبلته الثانية، لم يتذكرها. حكت لي ذلك بمنتهى البهجة وبلا أي ضغينة، وقالت إن الرياضيين ينغمسون في رياضتهم ولا ينشغلون إلا بها. لم تكن فقط متعَبة، بل أيضًا جائعة، وستتناول الغداء مع صديقتها في "بيل". وهنا، تبيَّن لي السبب الحقيقي وراء ثقتها بي؛ إنه الجوع، فالتعب وحده لن يجعلها تقُصُّ عليّ كل تلك الحكايات.

"كنا جائعَيْن ومتعبَيْن": قيلت هذه الجملة على لسان فتاة شابة في رواية "المفتاح الزجاجي" للكاتب الأمريكي "داشيل هاميت"، حيث كانت الفتاة تحكي لبطل الرواية "سام سبايد" حلمًا راودها عنهما. فالتعب والجوع جمعهما سويًا. أعتقد أنه باستثناء الأطفال الصغار، فمُتحَدي الإعاقة والحيوانات هم الأكثر

عُرضة لذلك التعب الذي يقترن بالجوع.

منذ بضعة أيام، رأيت أحد متحدي الإعاقة هنا في "ليناريس". كان يتنزه ممسكًا بيَد أحد أفراد عائلته، وبدا مندهشًا من رؤيتي جالسًا على الدكة، تعبًا من الجهد الأدبي الذي بذلته طوال اليوم. نظر إليّ بإمعان. لم تحملق بي عيناه فقط، بل وجهه بالكامل. تجمَّد في مكانه، لدرجة أن من كان برفقته اضطر أن يشُده إليه كي يتحرك، فيما عبَّرت ملامح وجهه عن سعادة خالصة، لمجرد أن شخصًا آخر نظر إليه واعترف بوجوده.

كنت في "فريولي" ذات يوم، متعَبًا بعد الانتهاء من العمل والسير لساعات على سطح يخلو من الأشجار. مررت بقرية "ميديا"، وصرت أمشي داخل إحدى الغابات، حتى وصلت إلى حافتها. وهناك، رأيت بطتين، وغزالة، وأرنبًا وحشيًّا، يستلقون معًا على العشب. وعندما وقع بصرهم عليّ، بدا وكأنهم يستعدون للهرب، ولكنهم أخذوا يستكملون أنشطتهم بمنتهى الأريحية؛ نتف العشب، والأكل، والتبختر.

في الطريق المجاور لدير "بوبليت" بـ"كتالونيا"، صادفت كلبَيْن، أحدهما كبير والآخر صغير، كأنهما أبٌ مع ابنه. أخذا يسيران معي، مرات يلحقان بي من خلفي، ومرات يسبقانني. ومن شدة تعبي، نسيت أنني أخشى الكلاب. أعتقد أن رائحة المنطقة امتزجت بي، بسبب كثرة جولاتي بها، ما جعل الكلبين

يشعران بالألفة تجاهي. وبعدها، أخذا يلعبان معي، حيث مشى الأب في دوائر من حولي، فيما طارده صغيره بين فتحات ساقيّ.

رائع، هأنذا أمتلك صورة جديدة عن التعب الإنساني؛ فهو يُفسِح المجال، كي تتشكل ملاحم سائر المخلوقات الأخرى، حتى الحيوانات.

هنا يمكن أن أستطرد بعض الشيء: في المنطقة التي يفوح فيها عطر الكاموميل خارج "ليناريس"، حيث أتنزه كل يوم، ألاحظ أشكالًا متنوعة من التواصل بين البشر والحيوانات، مثل النسور التي تظهر وكأنها جالسة فوق الكتل الحجرية، ولكنها في واقع الأمر مُتربِّصة، ولا تعي أنها على بعد طلقة نارية واحدة من تلك الأقفاص الصغيرة، المشبوكة بعواميد ليِّنة، مغروزة بين الصخور. إن تلك الأقفاص صغيرة جدًّا، لدرجة أن رفرفة مساجينها تجعلها تتمايل، فتجذب الطيور الكبيرة إليها (يظهر أمامي الآن على ورقتي ظل أحد النسور، بينما أجلس في هدوء مريب عند شجرة الكينا المغروزة بين الصخور. هذا هو مكتبي في الهواء الطلق، بينما أستمع إلى الصخب وقرع الطبول المبهج احتفالًا بعيد الفصح الإسباني).

وهؤلاء الأطفال، الذين خرجوا من منطقة الغجر ليركضوا في الخلاء مع غروب الشمس، يجدوا كلبًا نحيفًا يرقص من حولهم. ينبح الكلب عندما يقع بصره على أرنب بري طليق في السافانا.

يُسرع الكلب خلفه، فيما ينعطف الأرنب، ويدور، ويرجع إلى الخلف، إلى أن يُمسك به الكلب بفمه، ثم يُسقطه، حتى يُمسكه مرةً أخرى. يحرك الأرنب نفسه هنا وهناك، بين أنياب الكلب الذي يجري سريعًا عبر الحقل، وسط صرير الأرنب المستمر. ينتهي هذا العرض عندما يسلك الأطفال طريق العودة، بينما يقفز الكلب إلى أعلى. يبسط أحد الأطفال يديه، كي يمسك بالأرنب من أذنيه، ثم يحمله عاليًا. إنه ملطخٌ بالدم، ينتفض قليلًا، إلى أن ترتخي أطرافه. جسمه الصغير، يتصدر ذلك الموكب الذي يسير في اتجاه غروب الشمس، ويظهر من زاوية جانبية، في مستوى أعلى من رؤوس الأطفال. يبدو مغلوبًا على أمره، لا حول له ولا قوة، أكثر بؤسًا من أي حيوان أو إنسان.

فقط بالأمس، في طريق عودتي إلى البلدة، بعد أن فرغت من الكتابة في مقرِّي بشجرة الكينا، وجدت حشدًا من المراهقين عند السور الحجري الذي يحيط بحقل الزيتون، يصرخون، ويلَوِّحون بأغصان الزيتون والقصَب، ويركضون هنا وهناك، ويركلون كومة من الأحجار بأقدامهم. ومع شعاع الشمس، ظهر أسفل تلك الأحجار ثعبانٌ طويل، سميك وملفوف، وبالكاد يتحرك، رأسه يرتعش ولسانه يتحرك قليلًا. هل ما زلت ثقيلًا من نومة الشتاء، أيها الثعبان؟ انهال القصَب عليه من جميع النواحي، أخذ هؤلاء المراهقون (الذين انضممت إليهم) يصرخون ويسارعون هنا وهناك. وأخيرًا ارتفع الثعبان عاليًا، إلا أنه كان بائسًا ومثيرًا

للشفقة. لم يكن قادرًا على الهجوم ولم يُشكِّل أي خطورة. ظهر من زاوية جانبية برأسه المسحوق، والدم الذي ينساب من فمه. وقبل أن يسقط أرضًا تحت قذف الأحجار، ذكَرني بالأرنب البري.

لماذا أحكي تلك القصص التي لا تحمل في فحواها أي أحداث؟ ربما لأن التعب الذي أحكي عنه يتطلب تلك المماطلة وذلك التطويل.



تحكيها، لأنك تتوق إلى روايتها، فهي أكثر تلوينًا وأكثر إيحاءً من رصدك اللامتناهي لأنواع التعب.

لا أملك الرغبة في الإقناع، ولا حتى عن طريق الاستعانة بالصور، بل أريد أن أذكركم جميعًا بأنواع التعب التي تعايشونها، وكلي ثقة أن جوْدة الصورة ستتجلى مع نهاية هذه المقالة. بل ربما الآن، إذا صرت مُتعبًا بالقدر الكافي.

ولكن بعيدًا عن تلك الألغاز واللمحات الخاطفة، ما جوهر التعب الأخير؟ كيف يحدث؟ إلامَ يؤدي؟ وما النشاط الذي نؤديه ونحن مصابون به؟

إن التعب في حد ذاته أفضل نشاط، فهو بداية وفعل، ويقدم

لنا دروسًا مفيدة. في الماضي، كنا نتناول الشيء في إطاره الخاص، ومع مرور الوقت، صرنا لا يمكن أن نتناول الشيء إلا في إطار علاقته بنا. ولكن أنواع التعب التي أتناولها هنا، تُجدد ذلك المفهوم القديم، وتربطه بالحديث. فالشيء هو ما يبدو عليه، أما في أثناء التعب، فلا يمكن أن يتجلى وحده، بل لا بدَّ أن يرتبط بأشياء أخرى، حتى وإن كانت قليلة.

لذا، علينا أن نتشارك في التعب "معًا".

لماذا صرت فيلسوفًا فجأة؟

إن الزمان في حد ذاته فضاء، والآخر يمكن أن يصبح أنا.

هذان الطفلان أمام عينيّ هما أنا. الطريقة التي تشُد بها هذه الأخت أخاها الصغير، لها مغزى وقيمة. لا شيء تعلو قيمته عن أي شيء آخر. قيمة المطر الذي يتساقط على ذلك الرجل المتعَب، تتساوى مع قيمة نظراته لهؤلاء الذين يمشون على الجانب الآخر من النهر. هكذا يكون الجمال، وهكذا سيظل، وهكذا تكون الحقيقة.

الأنا الأخت تُمسك بالأنا الأخ، فتظهر النسبية وكأنها مطلقة، ويظهر الجزء وكأنه الكل.

ما الذي تتأمله هنا؟

ينعكس مفهوم: "الكل في الواحد" على لوحات الحياة الساكنة، التي ظهرت في القرن السابع عشر، وخاصة على لوحات الزهور التي انتشرت في هولندا. إذ يمكن أن أجد في نفس اللوحة خنفساء، ثم حلزونة، ثم تقع عيناي على نحلة، وأرى فوق الزهرة فراشة. على الرغم من أنهم ليسوا على دراية بتواجد الآخر، إلا أنهم في تلك اللحظة، في لحظتي أنا، كانوا "معًا".

هل لك أن تُعبِّر عن نفسك بشكل ملموس دون اللجوء إلى تلك الصور؟

حسنًا (آمل أن يكون الآن قد أصابك قدر كافٍ من التعب) فلتجلس هنا معي عند الحائط الحجري على الناصية، أو فلنجلس القرفصاء معًا على تلك الأعشاب في منتصف الطريق. تأمَّل معي، صور الـ"معًا"، وهي تتجلى لنا مع انعكاس الضوء. فبينما نحن على مقربة من الأرض (ولكن أيضًا على بعد مسافة معقولة) نستطيع أن نرى اليرقة الزاحفة، والخنفساء التي تحفر في الرمل، مع النملة التي تعرج فوق الزيتونة، ولحاء الشجر الذي التَوَى وأخذ شكل البابيون.

لا أريد أن أقرأ تقريرًا مصورًا، احكِ لي قصة!

منذ عدة أيام، انجرفت جثة حيوان الخلْد مع حركة الغبار، ببطء شديد (مثل تماثيل الحزن التي يحملونها ويتجَوَّلون بها ببطء في أثناء الاحتفالات بأسبوع عيد الفصح، هنا بالأندلس). وعندما أدرته، وجدت من تحته موكبًا من الخنافس، تلمع باللون الذهبي.

وفي الشتاء الماضي، في طريق ترابي مشابه لهذا، ولكن في "جبال البرانس"، جلسْت القرفصاء، تمامًا مثلما نجلس الآن، أراقب الثلج الذي يتساقط من حولي، فما إن يلمس الأرض، حتى يصبح فتاتًا، يصعُب تمييزه عن فتات الرمل الفاتح. وحالما يسيح، يخلف وراءه بِرَكِ مياه داكنة، شتَّان الفرق بينها وبين البِرَك التي تُشكِّلها قطرات المطر، فهي أكبر حجمًا، وأقل تناسقًا، عندما تغوص داخل التراب.

عندما كنت طفلًا صغيرًا، لا يتجاوز طولي هذه المسافة التي تبعد بيننا الآن وبين الأرض. كنت أسير مع جدي تحت شمس الفجر، في طريق ترابي شبيه بهذا، ولكن في النمسا. كنت حافي القدمين، على نفس درجة القُرب من الأرض، وعلى نفس درجة البعد الأزلي عن ثقوب التراب المتفرقة، التي أخذت شكل أفواه البركان، بعدما سقطت قطرات المياه في قلبها. إنها إحدى الصور الأولى التي ترسَّخت في ذاكرتي، وسأظل أستحضرها إلى الأبد.

وأخيرًا لا تقتصر استعاراتك ومجازاتك حول آثار التعب على الأشياء، بل ها هي تشمل البشر أيضًا. ولكن الشخص التعِب هو أنت، وحدك، دون غيرك، لماذا؟

أعتقد أن أعظم أنواع التعب التي لحِقت بي، هي تلك التي استحضرت معها أشخاصًا آخرين. إن التعب يحكي قصة الآخر، حتى وإن كنت لا أعلم عنه أي شيء. فهذان الرجلان، ذوا الشعر المبلل الممشوط إلى الوراء، والوجه الهزيل، والأظافر المشققة، والقميص النظيف، فلاحان. لقد عملا بكدح طيلة اليوم في المزارع البعيدة، وسارا لمسافة طويلة على قدميهما كي يصلا إلى هذه الحانة في البلدة، على عكس باقي الموجودين، بما فيهم ذلك الرجل الذي يجلس هناك. إنه يلتهم وجبته وحده، فهو غريب عن المنطقة. أرسله المقر الرئيس لشركته إلى "ليناريس"، بعيدًا عن عائلته. أما ذلك الرجل العجوز، الذي يقف يومًا بعد يوم عند حافة حقل الزيتون الصغير، ساندًا كوعه على فرع الشجرة، فهو حزينٌ على موت زوجته.

يمكن للخيال أن ينتاب الشخص المتعَب، ولكنه يختلف عن خيال النائمين، الذين ذُكروا في الإنجيل والملاحم؛ إذ تنتابهم الرؤى أثناء المنام.

تحدث معي عن التعب الذي جال بخاطرك الآن، في التو واللحظة، وسط كل هذا الارتباك.

إن هذا الارتباك متعمَّد، فهو يتوافق مع الموضوع الذي أطرحه. دعنا نوَجِّه قصيدة بندرية لا إلى المنتصِرين، بل إلى المتعَبين.

إن أتباع الكنيسة الخمسينية يرمزون لفرد مُتعَب، أملى عليه تعبه بما ينبغي أن يفعل. فالتعب هو الملاك الذي يلمس أصابع المَلِك، بينما يخلد باقي الملوك إلى النوم وينعمون بالأحلام. والتعب الصحي ما هو إلا شفاء. فمَثَل الفرد المُتعَب، كمثل "أورفيوس"، الذي حاصرته أشرس الوحوش، إلى أن شاركوه تعبه. إن التعب يعطي المشتَّتين مفتاح الخلاص. فكلما عزف المفتش "فيليب مارلو" عن النوم طوال الليل، تمكَّن من فك الألغاز ببراعة. كما أن "أورفيوس" المتعَب، فاز بقلب "ناوسيكا". فالتعب يجعلنا أصغر سنًّا، كما لم نكن من قبل. إنه أكبر من الذات، وكل شيء يصبح استثنائيًّا في طيات سكونه.

كم هي استثنائية، تلك الحِزمة من الأوراق، التي يحملها تحت ذراعه هذا الرجل المُتمهِّل في شارع "سيرفانتس" الساكن. إنه حقًّا تجسيدٌ للتعب.

في ليلة عيد الفصح، منذ فترة بعيدة، مع إحياء ذكرى القيامة، كان رجال البلدة من كبار السن ينبطحون أرضًا داخل الكنيسة

بجوار الضريح، مرتدين عباءات حمراء ومُزركشة. وحينها، كنا نلاحظ أشكالًا متعددة الأضلاع خلف رقابهم، أصابتهم من فرط تعرضهم لحرقة الشمس أثناء العمل لأعوام مديدة.

الجدة المحتضرة في تعبها الصامت تُطَمئن العائلة، حتى زوجها الذي طالما كان عنيف السجية.

وكل مساء، هنا في "ليناريس"، أراقب تعب الأطفال الصغار، وهو يتزايد، بعد أن اصطحبهم الكبار معهم إلى الحانة. إنهم لا يأكلون بشراهة، ولا يمسكون بالأشياء هنا وهناك، بل فقط يلعبون.

ومع كل هذا، هل أحتاج أن أذكركم بأن تلك الصور العميقة من التعب، تُفرِّق بين أنواعه المختلفة؟

حسنًا، لا شك أنك قمت بعرض الإشكالية بوضوح، حتى وإن كان أسلوبك يتخلله قدرٌ كبير من التلعثم والغموض. ولكن ما الذي يستحضر تلك الأنواع من التعب؟ عدم النوم؟ السفر أو السير عبر مسافات طويلة؟ الأعمال الشاقة؟ هل لديك وصفة لليوتوبيا؟ حبوب منشطة لسائر بني البشر؟ أو بودرة، تذوب في المياه التي يشربها هؤلاء الذين يعيشون في عالم اللاتعب؟

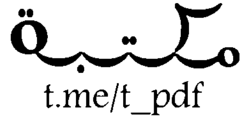
لست على دراية بأي وصفة، ولا حتى لنفسي. كل ما أعرفه

هو أن التعب لا يمكن التخطيط له، ولا يمكن أن يكون هدفًا نسعى إليه. أعلم أنه لا يجتاحنا بلا سبب، ودائمًا ما يلحق بالعناء والمشقَّة.

والآن فلنقف ولنخرج إلى الشارع، بين الناس، لنرى ما إذا كان بعض التعب المشترك ينتظرنا، وما الذي يمكن أن يُعلمنا إياه.

هل الوقوف يقترن بالتعب أكثر من الجلوس؟ أتذكر تلك المرأة العجوز البائسة، وهي تجلس في الحديقة، ولا ترغب في الرحيل. يضايقها ابنها (كالعادة)، على الرغم من شيب شعره، فهو دائمًا في عجالة. تقول له: "دعنا *نجلس* هنا لبعض الوقت".

فلنجلس إذًا، ولكن ليس هنا، في هذا الخلاء، بين حفيف أوراق الأشجار، وحدنا، بل هناك، عند ناصية الشارع، فربما يوجد مشغل موسيقى.



لن تجد أي مشغل موسيقى في إسبانيا.

يوجد واحد هنا في "ليناريس"، شكله غريب.

احكِ عنه!

كلّا، ربما مرة أخرى، في خواطر عن مشغل الموسيقى.

ولكن قبل أن نخرج إلى الشارع، إليكم صورة أخيرة عن التعب!

إنها آخر صورة للبشرية، في لحظاتها الأخيرة، في خِضَم التعب الكوني، إنها متصالحة مع التعب.

ملحق:

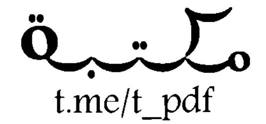
إن أقفاص الطيور في منطقة السافانا، ليس من شأنها أن تجذب النسور. سألت رجلًا جالسًا على مقربة مني، بين الصخور، فأجابني، أنه أخرج الأقفاص، كي يستمع إلى العصافير الصغيرة وهي تشدو. فأغصان الزيتون المغروزة في الأرض، ليس الغرض منها جذب النسور من السماء، بل حث العصافير على الغناء.

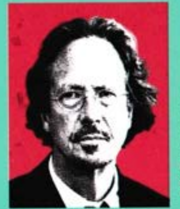
ملحق ثانٍ:

أم أن العصافير الصغيرة تزقزق لذاك النسر في السماء العالية، كي نراه محلقًا إلى أسفل، على سبيل التغيير؟

ليناريس، الأندلس

مارس 1989





كلنا أسرى بداخل قالب من التعب، فمن منا لا يتسلل إليه ذلك الشعور بشكل يومي؟

يرصد بيتر هاندكه تجاربه مع التعب، ويحللها، ليكشف لنا ما لم نعرفه من قبل "عن التعب" بشتى أنواعه؛ تعب طيب وتعب خبيث.. تعب في فترة الطفولة يصاحبه الشعور بالذنب، وتعب في فترة المراهقة يتخلله التمرد والغضب.. تعب السهاد، وتعب السفر.. تعب يوتوبي، وتعب أثيري.. تعب شعوب بأسرها، وتعب فرد واحد.. تعب مزدوج يفرق بين الرجل والمرأة، وتعب شهواني يجمع بينهما إلى الأبد.

بيتر هاندكه: كاتب وروائي ومسرحي ومترجم نمساوي، ولد عام 1942، وفاز بجائزة نوبل للآداب 2019.
انطلقت شهرته عام 1966 مع نشر روايته الأولى، وأصبح نجمًا في الأوساط الأدبية المتحدثة بالألمانية مع نجاح مسرحياته خلال ستينيات القرن العشرين.
فاز هاندكه بالعديد من الجوائز الكبرى وأثار الجدل في العديد من المواقف والأوقات، وعلى مدى سنوات طويلة ظل يذهل محبي الأدب بأعماله التي تبرع في تصوير المشاعر الإنسانية وتبدع في مقاربة مكنونات العقول والقلوب.

Cover design by: Alaa Elnewehy



